«حكايتي شرح يطول» لحنان الشيخ:

قصة الأم من دون رقابة أو تزويق اخلاقي مفتعل

د. نبيه القاسم*

■ رغم وجود المصادر التراثية العديدة التي تؤكد وجود نماذج من السيرة الذاتية في تراثنا العربي،(1) إلا أن السيرة الذاتية بمفهومها الحديث وتعريفها النقدي تُعتبر «ظاهرة حديثة غربية» حسب رأي جورج ماي(2). ويتحدد تعريفُها كما جاء على لسان مُنظرها الأبرز فيليب لوجون « حكي استعادي نثري يقومُ به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يُركزُ على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة»(3) وبعد مدة عاد وحدث تعريفه بقوله: «ان الكتابة السير-ذاتية هي أولا ممارسة فردية واجتماعية لا تقتصر على الكُتّاب وحدهم»(4).

وكما في الإبداع الأدبي عامة وكتابة السيرة الذاتية خاصة كان الرجلُ هو المبدع الأول والوحيد لفترة زمنية طويلة في الغرب. هكذا أيضا في أدبنا العربي كان الرجل هو المُبادر والمُتفرد. ويعود ذلك إلى ذكورية المجتمع وصعوبة اختراق المرأة للحواجز العالية التي وُضعت أمامها. فالرجلُ لم يُسلم بسهولة بقدرة المرأة على مُراوغة الكلمة ومُراودتها واصطيادها وخلق نموذج إبداعي كما يستطيع الرجل، ولهذا شهدنا التشكيكات والاتهامات والإدعاءات التي رافقت ظهور كل إبداع أنثوي وادعاء رجل أنه صاحبُ هذا العمل (أذكر فقط بما جرى للشاعرة سعاد الصباح والإدعاء بأن الشاعر نزار قباني هو من يكتب لها قصائدها، وما جرى للكاتبة أحلام مستغانمي عندما أصدرت روايتها «ذاكرة الجسد» والقول بأن الشاعر سعدي يوسف هو صاحب النص).

دخول المرأة عالم الخلق والإبداع ومنافستها للرجل في قُدس أقداسه التي اعتبرها اختصاصاته المُتفرد بها وضعت كليهما أمام تحديات كبيرة. وشعر الرجل باهتزاز عرشه وانحسار تألقه وانقشاع الهالة التي أسبغها على نفسه، وأن المرأة التي طالما حجمها في وظائفها التي حددها لها وقيدها في الإطار الذي رسمه، تتمرد وتكسرُ قيدها وتكتسح أطرها وتتجاوزُ وظائفها وتُواجه الرجل في ساحته مُواجهة الند للند.

وكانت المرأة العربية، كما الغربية، على إدراك تام بأنها تُحارب الرجل من موقعه الخاص به. فالمجتمع الذي تتمرد عليه وتخرجُ لمواجهته وتغييره ذكوري بمفاهيمه وعاداته وتقاليده وحتى لغته. هذا المجتمع الذكوري الذي وضع له قوانين صارمة ومتشددة وصعبة التجاوز والاختراق، حتى على الرجل، وحدد الأقانيم الثلاثة المقدسة التي لا يجوز الاقتراب منها وهي: الجنس والدين والسياسة. وإذا كان يصعب على المبدع الاقتراب من هذه الأقانيم المحرمة الثلاثة في الرواية أو الشعر فكيف ستكون حالته في السيرة الذاتية التي تكون شهادة الإدانة الرئيسية والكافية لتسليم عنقه لمقصلة المجتمع والسلطات المسؤولة. وكيف سيكون رد فعل مجتمعنا العربي المُتشبث بالماضي إذا كانت صاحبةُ هذه السيرة الذاتية واحدة من بناته المُتمردات!؟ وذلك لأن السرد في السيرة الذاتية يكون بضمير المتكلم مما يعني كما يقول جيرار جينيت سيكون «التبئير على بطل السيرة شيئا مفروضا في الشكل السير-ذاتي».

ويُوضح جينيت « بأن السارد السير-ذاتي غير ملزم بأي تحفظ بإزاء ذاته، والتحدث باسمه الخاص، بسبب تطابق السارد مع البطل». ويؤكد «أن التبئير الوحيد من وجهة نظر السارد-البطل، يتحدد بالعلاقة مع معلوماته الحالية كسارد، وليس بالعلاقة مع معلوماته الماضية بوصفه بطلا، أي أن اتجاه السرد لا يبدأ بشكل خطي، كما هو في الحياة التي عاشها في الماضي، بل الحياة التي يرويها (الآن) بوصفها جزءا من ماضيه»(5).

«ورغم أن التطابق بين المؤلف والسارد هو المطلوب، والقائم فعلا في معظم الأعمال السير-ذاتية إلا أن الصدق المطلوب غير مؤكد في كتابة السيرة الذاتية وذلك لما تتعرض له السيرة الذاتية من إمكان الخطأ أو التصحيف المتعمد كالنسيان أو التناسي، والحذف والإضافة، والتعديل والتكييف، وإكراهات الوعي القائم زمن الكتابة والاسترجاع اللاحق للأحداث»(6) ويشير والاس مارتن إلى «متغيرات تمنع تقديم صورة ثابتة لحياة الكُتّاب منها ما يتعلق بالنفس التي تصف الأحداث حيث تتبدل منذ تجربة الأحداث ومنها ما يتعلق بالأحداث وقيمتها في زمن استرجاعها وكتابتها»(7). كما أن الصدق في السيرة الذاتية محاولة يُحبطها أو يحد منها زمنُ الكتابة، كما أن فعل الاسترجاع والاستعادة بواسطة الذاكرة يتم في الحاضر، ذهابا إلى الماضي بطريقة الانتقاء أو الاختيار التي تسميها يمنى العيد (الاستنساب) وعجز الكتابة عن استعادة كل أبعاد المحكي بل اجتزاء وأحيانا تقديم وتأخير الوقائع كما يقتضيه السياق. (8) ولا يملك سارد السيرة-الذاتية القدرة للتخلص من زمن الكتابة (الحاضر) ليلتحم بالماضي الذي يرويه»(9) وهذا ما يدفعه إلى (خلق الماضي) الذي يصعب على الاستعادة.

وحنان الشيخ الكاتبة اللبنانية التي تألقت في ابداعاتها الروائية مثل «حكاية زهرة» و«مسك الغزال» تخرج إلينا بعمل إبداعي متميز هو «حكايتي شرح يطول». والحكاية هي قصة أمها كاملة التي روتها لحنان لتُقدمها لنا. تقول كاملة في نهاية قصتها: «ها هي حكايتي كتبتها لي ابنتي حنان.. حتى إذا رويتُها لها توقفتُ عن لوم نفسي. كنا نجلس معا من غير آلة تسجيل، تخط في دفاترها الصغيرة التي تُشبه المفكرات التي ألصقتُ عليها الصور»(10). وتُخبرنا أنها كانت تستهل حديثها مع حنان في كل مرة بالكلمات «حكايتي شرح يطول، لوما الجرادة ما علق عصفور» وأن حنان لم تنشر القصة مباشرة وإنما خبأتها، وبعد مرور عامين على وفاتها عادت إلى الأوراق وجهزتها للنشر واكتشفت أنها نسيت أن تسأل أمها عن معنى الكلمات التي كانت تبدأ بها كلامها. وأنها استفسرت من صديقة لها عن المعنى(11) ومن ثم اختارت مبتدأ الكلمات لتكون عنوانا للقصة.

ووالدة حنان الشيخ «كاملة» لم تكن تعرفُ القراءةَ والكتابة، وكانت تُعبر عما تُريد بالصور التي ترسمها. والقصة كما كتبتها حنان هي سيرة ذاتية لوالدتها ترسمت فيها حياتها من بدايتها في بيتهم المتواضع في جنوب لبنان وما عانته وأمها وشقيقها على أثر هجر الوالد لهم وزواجه من أخرى والتنكر لحقوقهم مما دفعهم للأعمال الصعبة ومن ثم قرار الأم الانتقال إلى بيروت للعيش هناك في كنف الأبناء من الزوج الأول. وفي بيروت لم تكن الأوضاع الاقتصادية أفضل، فقد اضطرت الأم للعمل وعلى دفع ابنتها كاملة التي لم تتجاوز العشر سنوات، إلى طرق أبواب البيوت للكسب. وكانت نقطة التحول الأولى في حياة كاملة عندما كتبوا كتابها على زوج شقيقتها التي توفيت ومن ثم إيداعها عند خياطة قريبة لتُعلمها المهنة حيث تعرفت هناك على جار الخياطة محمد الذي جذبته كاملة الصغيرة بجمالها ورشاقتها وعفويتها وصغر سنها وصوتها الجميل فطاردها حتى نجح في كسب قلبها ليعيشا قصة حب عنيفة لم تتأثر بزواج كاملة ولا بولادتها مولودتها البكر فاطمة. فقد حرصت ومحمد على اللقاء المستمر في غرفته وحتى أقامت معه العلاقة الجنسية التي كانت «حنان» ثمرتها الى حد ما. وتتوسع كاملة في وصف زوجها بكل النعوت السلبية وتذكر محاولاتها المتكررة للتخلص منه حتى نجحت في النهاية بالطلاق منه والزواج من حبيبها محمد الذي عرفت معه أجمل أيام حياتها. لكن سعادتها انتهت بحادث طرق أودى بحياة محمد ومواجهة كاملة وأولادها لصعاب الحياة ووحوشها من جديد. وبانفجار الحرب الأهلية عام 1975 وجدت كاملة نفسها تفتقد أولادها الواحد تلو الآخر، ففاطمة وحنان مع الأولاد يسافرون إلى لندن. وتلحق بابنتيها من محمد إلى الكويت ومن ثم تلحق بابنها البكر إلى ولاية فلوريدا في الولايات المتحدة. ولكنها تقرر العودة إلى لبنان لتعيش في وطنها وبين أهلها حتى كانت نهايتها بأن مرضت وفارقت الحياة وهي وسط أفراد بيتها.

قد تبدو سيرة حياة كاملة في خطوطها العريضة عادية كحياة الآلاف من الفتيات العربيات في بلداننا العربية. لكن التميز فيها في التفصيلات والأحداث والمُمارسات التي كان يرفضها الأهل ويعاقبون عليها ويدينُها المجتمع. فكاملة منذ صغرها انحازت إلى جانب أمها ورفضت طاعة والدها والبقاء عنده فغافلته وهربت. وفي بيروت كانت تتحدى العيون الملاحقة لها وتقابل أصحابها بالسخرية. كانت تحلم أن تكون ممثلة سينما ولهذا كانت تذهب دون علم أفراد بيتها لحضور أفلام سينمائية وكانت تتقمص شخصية البطلة وتحياها بكل تفاصيلها. وعندما وقعت في حب محمد لم تهتم لعواقب ذلك وانساقت في حبها رغم أنها كانت مخطوبة لزوج شقيقتها التي توفيت. ولم تستسلم لحكم العائلة بتزويجها القسري وتمردت، وعندما فشلت كل محاولاتها وأرغمت على الزواج رفضت اقتراب زوجها منها حتى تآمر عليها الجميع واغتُصبت بالقوة. وفي علاقتها مع محمد تحدت كل مفاهيم العائلة والمجتمع وظلت تُقابله وتُبادله الحب حتى نجحت أخيرا بالزواج منه بعد إرغام زوجها على الموافقة على الطلاق منها.

وسيرة حياة كاملة هي سيرة حياة الكثيرات مثلها اللاتي عشن ظروفها التي عاشتها، وهي صورة بانورامية للمجتمع الشيعي الفقير في الجنوب اللبناني بكل عاداته وتقاليده ومفاهيمه وعلاقاته، وما يحدث لمن يترك هذا المجتمع لينفتح على مجتمع بيروت المتفجر والمتغير أبدا. كما أن سيرة كاملة هي تأريخ للأحداث المهمة التي عاشها لبنان منذ سنوات العشرينات من القرن العشرين حتى سنوات السبعينات الأخيرة وأحداث الحروبات الأهلية اللبنانية في الخمسينات والسبعينات من القرن نفسه. كاملة تُمثل هذا النموذج المتمرد من الفتيات وحتى الشباب الذين رفضوا الاستسلام للواقع ونظروا إلى المستقبل يريدون ارتياده من أوسع بواباته لا يقفُ أمام طموحهم أي عائق. لم يكن في تحديها للواقع المعيش ما هو من الخوارق والمستحيلات وإنما كان الإصرار على الرفض والنزوع الدائم للتغيير والخروج على المألوف. وذلك يتم ببساطة وعفوية تقترب من البراءة الطفولية ولكن باستمرارية وثبات على الرفض والتحدي والسعي نحو التغيير مستفيدة من معايشتها لوالديها وما تميز به كل منهما: الأم باصرارها على ملاحقة الزوج الهاجر لها والمتزوج عليها ومطالبته بدفع ما يُستحق منه، ومن ثم تركه والابتعاد عنه إلى الأبناء في بيروت لخوض حياة جديدة. والوالد الذي عشق نفسه وأحب المرأة ووجد فيها سعادته وفرحه فلم يتنازل عنها، ولأجلها ترك الزوجة والأولاد. وكما والدها أيضا كاملة كانت تخون زوجها وتتحدى المجتمع بعاداته وتقاليده، وتلتقي حبيبها، وحتى تُضاجعه، ولم تهتم بكلام الناس وتعليقاتهم. ومن ثم تركت زوجها وابنتيها من أجل الزواج من حبيبها الذي اختاره قلبها، ولم تشعر بالندم.

كاملة كانت تعي أهمية الدور الذي قامت به في حياتها وأبعاد الأفعال التي مارستها، رغم أن البعض قد يعتبرها عادية وليست ذات قيمة. فكاملة كونها الساردة لقصتها تُذكرنا بقول ماري تيريز عبد المسيح في تحليلها لدنيوية الحب في «طوق الحمامة» لابن حزم الأندلسي: « السارد هنا لا يُجاهر بخطيئته بل إنه في حديثه عن تجربته في الحب يكشفُ عن مكنون ذاته بما له وما عليه فيما يخُصه ويخص الآخرين. ويتم الإفصاح عن الذات في أسلوب ديالكتيكي حواري يُشارك فيه الساردُ والقارئ معا. حيث يخوض كل منهما التجربة عبر الآخر مما يهيئهما لتجاوز ذاتية الأنا لبلوغ الآخر. فالسارد يُجاوز ذاتيته حينما يُشركُ القارئ في تجربته والقارئ يُجاوز ذاتيته حين يخوض تجربة السارد. وإذا تحقق التواصل بين السارد والقارئ عبر التجربة الابداعية يكون ما يُطلق عليه بالمفهوم الأوسطي بلوغ التنوير perie-teia وبالمفهوم الديني الهداية للحق»(12). ولهذا اهتمت أن تكون سيرتها مُدونة ليعرفها الآخرون، وسعدتْ أنها أودعتْ قصتها عند ابنتها الكاتبة حنان، التي كانت الأقرب إليها ورأت فيها صورة مطابقة لها.

لقد اختارت الكاتبة حنان الشيخ أن تروي قصة والدتها بضمير المتكلم لأن الوالدة هي التي روت قصتها وحنان أعادت صياغتها وتحدثت باسمها ونجحت في أن تكتب سيرة ذاتية يتوفر فيها الشرط المهم الذي حدده فيليب لوجون وهو وجود تطابق بين المؤلف والسارد والشخصية.(13) وما تنفرد به «حكايتي شرح يطول» أنها تنسحب على أربعة أزمنة هي:

أ-زمن وقوع الأحداث في الماضي البعيد.
ب-زمن سرد الأحداث على الكاتبة في الماضي قبيل موت صاحبة القصة.
ج-زمن الكتابة.
د-زمن القراءة.

ومن الطبيعي أن تتفاوت الأزمنة وتتداخل ما بين الاسترجاع والاستحضار وفي حالة «حكايتي شرح يطول» تكون العودة للماضي والاسترجاع للأحداث على دفعتين:

الأولى: عندما روت كاملة صاحبة السيرة قصتها على ابنتها حنان. والثانية: عندما قامت الكاتبة حنان، بعد مرور سنوات على موت أمها، بكتابة ما سمعته وسجلته في أوراقها.

وطبيعي أن تتم في المرتين، خلال محاولة الذهاب إلى الماضي والاستعانة بالذاكرة لاسترجاعه وإحيائه تحت تأثير الحاضر بمفاهيمه وتغييراته، قصد الساردُ أو لم يقصد، عمليات الانتقاء والاختيار والتقديم والتأخير لسرد الأحداث مما يُبعد صفة الصدق الكامل عن السيرة الذاتية التي توختها الكاتبة بتقديمها لقصة والدتها. فمهما حاول كاتبُ السيرة الذاتية التخلص من أثر الزمن الحاضر، زمن الكتابة، والالتحام بالماضي فسيجدُ أنه واهم وليس بمقدوره ذلك.

حنان الشيخ في كتابتها لسيرة والدتها، كما في رواياتها السابقة، لم تحاول الرقابة والحذف ومراعاة الآخرين، ونقلت لنا بكل صدق وأمانة مواقف وأفكار وممارسات أمها كاملة التي بكل شجاعة تجاهلت الأقانيم الثلاثة المحرمة «السياسة والجنس والدين» وتمردت على مفاهيم الناس وقوانينهم. فعندما أحبت وهبت روحها ونفسيتها وحتى جسدها للحب وللرجل الذي أحبته رافضة كل النصائح والتهديدات، وتجاوزت كل الحواجز والصعوبات حتى حققت التواصل معه والزواج منه. وعندما شعرت أن المراسيم الدينية المُتبعة تُقيد حريتها وتضغط على أنفاسها رفضتها بسهولة ودون أي شعور بالذنب، فقد رفضت إدخال الشيخ المقرئ الذي أثقل عليها بحضوره اليومي بعد موت زوجها حتى ضاقت ورفضت فتح الباب له وسألته بتحد واصرار: «نعم شو بتريد؟ وإذ قال: أنا الشيخ اللي بيجي كل يوم أقرأ عن روح ابن عمك. قالت له طاردة إياه: الظاهر إنك غلطان بالبيت، ما فيش ميت عنا مش حرام تفول علينا؟»(14)

يبدو أن الكاتبة حنان الشيخ انساقت **في كتابتها لسيرة والدتها فجعلتها تتحدث بالنيابة عنها حتى بعد عجزها عن الحركة والكلام والوعي وحتى بعد مغادرتها للحياة وبعد مرور سنوات على موتها مما جعلني كقارئ أتساءل عن الحكمة في عملها هذا، ولماذا لم تقم حنان، التي ائتمنتها أمها على قصتها، بعد تدهور صحة أمها ومن ثم موتها، بتسجيل ما كتبته بلسانها هي مؤكدة بذلك على اخلاصها لوصية أمها ووديعتها ومُظهرة حبها الكبير لتلك الوالدة التي كان لها التأثير الكبير عليها مما كان يُكسب القصة المصداقية والواقعية والقبول أكثر. لكن الحقيقة التي يجب أن تُقال: إن حنان الشيخ في روايتها لسيرة والدتها الذاتية ساهمت في ترسيخ هذا الجنار في أدبنا العربي الحديث واستطاعت أن تُحقق الشرط الأساسي فيه وهو وجود التطابق بين المؤلف والسارد والشخصية.**

* كاتب من فلسطين

الإشارات:

1 - قطع من السيرة الذاتية لمحمد بن شهاب الزهدي والسيرة النبوية لابن اسحق وابن هشام وكتاب سيرة محمد النفس الزكية، وكتاب الحارث بن أسد المحاسبي، وكتب سير الملوك والأمراء والسلاطين. ونجد تراجم وسير الفقهاء والمحدثين والقراء في كتب الفارابي وابن سينا والبيروني وياقوت الحموي وغيرهم.
2 - جورج ماي: السيرة الذاتية، ترجمة محمد القاضي وعبدالله صولة، قرطاج، تونس 1993.
3 - فيليب لوجون: السيرة الذاتية، ترجمة وتقديم عمر حلي. المركز الثقافي العربي بيروت 1994. ص 22.
4 - فيليب لوجون: جريدة «القدس العربي»، لندن - العدد 4118 في 13 آب 2002 ص 11.
5 - جيرار جينيت وآخرون: وجهة النظر من السرد إلى التبئير، ترجمة ناجي مصطفى، الدار البيضاء 1989، ص 67.
6 - حاتم الصكر: السيرة الذاتية النسوية: البوح والترميز القهري. مجلة فصول، عدد 63 شتاء وربيع 2004. ص 211.
7 - والاس مارتن: نظريات السرد الحديثة، ترجمة حياة جاسم محمد، المشروع القومي للترجمة القاهرة 1998، ص 97.
8 - يمنى العيد: السيرة الذاتية الروائية والوظيفة المزدوجة، مجلة فصول، العدد الرابع، القاهرة شتاء 1997، ص 12.
9 - جورج ماي: مصدر سابق ص 94.
10 - حنان الشيخ: حكايتي شرح يطول. دار الآداب، بيروت 2005. ص 379.
11 - المصدر السابق، ص 380.
12 - ماري تيريز عبد المسيح: دنيوية الحب في «طوق الحمامة». مجلة إبداع، العدد التاسع، ايلول (سبتمبر) 1996، ص 92.
13 - فيليب لوجون : مصدر سابق، ص 24.
14 - حنان الشيخ: حكايتي شرح يطول، ص 280.

قليل من اليوتوبيا في محيط من الوقاحة

خوان غويتيسولو*

ترجمة: ادريس الكنبوري**

■ أسالت فكرة تحالف الحضارات التي اقترحها رئيس الوزراء الاسباني خوسي لويس رودريغيث زباثيرو في خطابه بالأمم المتحدة في العام الماضي الكثير من المداد، فالاتهامات بالملائكية ونعوت القدح التي وجهت اليه من قبل أولئك الذين جروا اسبانيا الى حرب غير مشروعة ضد الارادة الشعبية والتي ظهرت نتائجها الكارثية مع مر الأيام لم تفاجئنا، فقد تعودنا عليها، والتحالف الخسيس لرئيس الحكومة السابق (خوسي ماريا أزنار)*** مع السياسة الأحادية لجورج بوش، ورؤيته الخاصة للتاريخ التي حاولت الربط بين تفجيرات 11 ايلول (سبتمبر) وغزو «المورو» لاسبانيا غير موجودة تعود الى القرن الثامن، واحتقاره لجارنا الجنوبي (المغرب)، تكشف عن رؤية للعالم تختزل فيها التعددية الثقافية الى مجرد مواجهة تبسيطية بين الارهاب والديمقراطية، ويختزل فيها التشابك المعقد للواقع الى فسطاطين، فسطاط الخير أو فسطاط الشر، ويتحول فيها النقاش السياسي الى سجال لاهوتي: الرب المؤيد لبوش في مواجهة الرب الحقود لبن لادن. فالسياسيون يمكن أن يصلوا الى اتفاق، أما المهووسون الدينيون فلا.

ان المواجهة الدينية والقومية بين المحافظين الجدد الراديكاليين في البيت الأبيض - الذين لا يشعرون مع ذلك بآلام شعبهم كما ظهر خلال مأساة اعصار نيو أورليانز - وبين الارهاب الاسلامي - الذي يبرر قتل الأطفال بدعوى ارسالهم مباشرة الى الجنة - تغذي هذا النوع الجديد من الحروب غير المتكافئة التي تضر بنا جميعا، وليست لها نهاية متوقعة ولا حدود معروفة. ان التفجيرات المرعبة التي حصلت في نيويورك ومدريد ولندن تكشف بوضوح عن قابلية الشعوب للاستهداف وعدم القدرة على الدفاع عن أنفسها، وجودها رهائن للحقد والكراهية التي تولدها الحروب والتجاوزات والجرائم التي تحدث في البلدان البعيدة والتي ليس لها لا ناقة ولا جمل فيها. فقد قتل 192 شخصا في مدريد مقابل آلاف القتلى في العراق، وقتل الضحايا في لندن من أجل ما يجري في فلسطين، وقتل ضحايا مانهاتن من أجل السياسة الامبريالية الأمريكية التي تتحرك وفقا للمصالح الاقتصادية والاستراتيجية في العالمين العربي والاسلامي، ذلك أن خطاب الحرب يؤدي الى جنون الارهاب، والعكس صحيح. فقليلون، قليلون جدا هم رجال الدولة الذين يقدمون بدائل سياسية للحالة الراهنة من الهوس الديني والرغبة في السلطة التي تبرر الحروب الاستباقية والعمليات الانتحارية ضد المدنيين والاغتيالات، والقائمة طويلة.

ان تجربتي الشخصية في النزاعات التي كنت شاهدا عليها في سراييفو وفلسطين والشيشان والجزائر جعلتني أنظر الى الأمور ليس من البرج العاجي للمؤتمرات الديبلوماسية التي تقيمها الدول، ولكن من المواقع السفلية لأولئك الذين يكونون ضحايا الهمجية بشكل مباشر، ووحدها المعالجة الدقيقة لأسباب العنف يمكنها أن تقضي عليه. ان وسائل الحماية والوقاية أمر مهم، لكنها وحدها ليست كافية.

ان منظري ومنفذي الأعمال الارهابية ينتمون الى مختلف الطبقات الاجتماعية، ويستندون الى مبررات مختلفة، وينفذون أعمالهم باسم دول «تافهة» أو محترمة افتراضا، وتساعد شبكة الانترنت على تخفيهم وتجعلهم غير معرضين للضبط. وما حصل سابقا في صربيا وما يحصل حاليا في فلسطين والشيشان والعراق يؤجج رغبات الانتقام لدى الشعوب المستضعفة التي تتعرض للاذلال من طرف النظام الدولي الراهن ومن طرف حكوماتها معا.

هل نوجد جميعا في نفس المستنقع الذي توجد فيه الولايات المتحدة الأمريكية بالعراق؟ أظن أن الجواب بالنفي، فالتيارات الدينية والاجتماعية لكوكبنا الصغير ليست في حالة صراع الى الأبد، ذلك أن التعايش ممكن وسيكون نتاج جهد دؤوب، ولهذا فان مشروع تحالف الحضارات الذي طرحه زباثيرو ولقي ترحيبا من لدن الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان ورئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان يستحق الترحيب به وينبغي التعامل معه بجدية. انني لا أؤمن بالملائكة ولا حتى برؤساء الملائكة، ولا أرى في هذا المشروع شيئا ملائكيا، لكن السخاء واتساع النظر ليسا أمرا خارقا للعادة، بل يشكلان جزءا من التركيبة البشرية تماما كالحقد والكراهية وحب السيطرة والرغبة في التدمير، والانتصار للأولى على الثانية هو مراهنة على الجزء النبيل منا في مواجهة حالة العمى. ان الأقليات المحظوظة التي ترسم لنا حياتنا تقصي من اعتبارها الشعوب التي تقودها وتستبعد بطبيعة الحال البلدان والمناطق غير ذات الأهمية من الناحية العسكرية والاقتصادية، انها تقلص من الضرائب على مواطنيها وتقلص أيضا المساعدات الموجهة الى ضحايا المجاعات والأوبئة، فهل نستمر في رفع أصواتنا بـ«التنمية الممكنة» بينما نعرف أن ذلك مجرد كذبة وأننا ندس رؤوسنا في الرمال كما تفعل النعامة؟ ان التغيرات المناخية والنهب المريع لكوكبنا يعنيان البشرية جمعاء، على الرغم من كون القوة الوحيدة المسيطرة - والتي يحاول بوتين ومعاونوه تقليدها بطريقة مشوهة - تريد النظر الى الجانب الآخر، لأن سياستها القائمة على مبدأ «سيروا وراءنا» تخطئ في فهم التوقيت.

ينبغي على مشروع تحالف الحضارات الذي طرح بوصفه برنامجا على المدى البعيد أن يركز ويجيب على التساؤلات المطروحة، فكونه جاء ردا على أطروحة صدام الحضارات لهانتنغتون يجعله متسعا ليشمل حقلا واسعا من الدلالات. وأنا أفضل عبارة انسجام الحضارات عوضا عن العبارة التقليدية لتحالف الحضارات، لأنه يدل على العلاقات فيما بين المجموعات البشرية التي تبني حضارة سائرة في طريقها، فخلق الانسجام بين ما هو مختلف هو أوسع من الحوار وأقل من التحالف في وجه عدو مشترك، سواء كان الفقر أم التفاوت الاجتماعي أم الارهاب، ان مفهوم الانسجام يعني التقارب في المواقف والمصالح بشأن هذه القضايا من منطلق الوعي بأننا جميعا نستقل مركبا واحدا ونعيش مغامرة واحدة. لقد تصادم العالم المسيحي الأوروبي والعالم الاسلامي طيلة تاريخهما ولم يكن الحوار بينهما مثمرا، ولا شيء اليوم يحتم عليهما البقاء على نفس الوضع، ويجب أن يتحقق التلاقي بين وجهات النظر في اطار حضارتنا المشتركة الشاملة. ان الجنون الانتحاري لبضع مئات من المتشددين الذين ينصبون أنفسهم ناطقين باسم العناية الالهية يتطلب ردا حاسما وقويا وعادلا، في احترام تام لحقوق الانسان كما سطرها ميثاق الأمم المتحدة، ومثل هذه السياسة لن تكون ممكنة من دون انخراط حكومات العالم الاسلامي واتخاذ تدابير اقتصادية وديبلوماسية وثقافية حيال الرأي العام الذي يمتد من المغرب الى باكستان والذي يشعر حقا بالاهانة من جراء الاحتلال غير المشروع للأراضي الفلسطينية وزرع بذور العاصفة في العراق التعيس.

لقد قلت في الماضي بأنه لا توجد حضارات، ولكن حضارة واحدة بتنوعات مختلفة، ولكي يكون للبلدان الاسلامية حضور وازن في هذه الحضارة يجب عليها أن تعتنق الديمقراطية وأن تخرج من الطريق المسدود: ضعف التنمية البشرية والثيوقراطية الزائدة واحتقار النساء، وهذا يقتضي المعالجة النقدية لأسباب التأخر وعدم الحراك الاجتماعي، بدون هذا لن يكون لتحالف الحضارات معنى.

ان العنف يولد العنف، والحرب تولد المزيد من الحرب، وفي سياق الوضع الراهن الذي يتميز بالانتشار غير المسؤول للأسلحة النووية فان هذه الدوامة تصبح تهديدا حقيقيا للكوكب كله.

لقد تقدمت المجتمعات البشرية بفضل القليل من اليوتوبيا التي جعلتنا ما نحن عليه اليوم، فالغاء العبودية كان يبدو يوتوبيا قبل قرنين، ومساواة المرأة كان يبدو كذلك قبل مائة عام فقط، لذا فان امكانية التعايش والتفاهم وتقليص الفروقات السياسية والاقتصادية والثقافية الموجودة في عام 2005 يمكن أن تتحقق يوما ما اذا بدأنا العمل من أجل ذلك من الآن.

* كاتب وروائي اسباني مقيم بالمغرب، عضو لجنة ابن رشد للحوار الثقافي المغربي - الاسباني. والنص مأخوذ من صحيفة «ايل باييس» الاسبانية

** كاتب وصحافي من المغرب

*** الكلمات الموجودة بين قوسين من وضع المترجم للتوضيح.

محمد خير الدين في روايته التي ظهرت بعد رحيله: «حكاية زوجين عجوزين سعيدين»

تقديم وترجمة: محمد الفحايم

■ في هذه الرواية تطغى موضوعتان: الأولى هي تمجيد الحياة في الريف حيث تسود البساطة والسكينة، ونقد ضوضاء المدينة وبهرجها الزائف: دائما يُلمح البطل «بوشايب» الى استحالة العيش في مدن الشمال (ويعني، هنا، بالشمال كل ما هو بعيد عن الجنوب (سوس)، والثانية هي انصاف الثقافة الامازيغية التي ظلت محصورة ضمن التداول الشفوي ومنذورة للنسيان والاقصاء.

يتبدى الاهتمام بالثقافة الامازيغية في الرواية، من خلال مظاهر عديدة منها الأكل (اذ يذكر السارد انواعاً من الاطباق السوسية باسمائها الاصلية في لغتها) واللباس والغناء ومعمار البيت ومكوناته.

ويتجلى كذلك عبر اصرار «بوشايب» على طبع ونشر وتداول ديوانه الشعري، كيما يسهل تحصيله وتناقله بين الناس.

ان محمد خير الدين في هذه الرواية وكما يقول عنه الكاتب المغربي ادموند عمران المالح: «يحيّي هذا الجنوب الذي يجسد ارضه التي يتغذى منها، يُحيّي حُسن وطيبة اناسه التي يتشكل منها»(1)

ويقول محمد خير الدين في مكان آخر: «لقد تغنيت دائما بالجنوب، والكل يعرف هذا، ومع ذلك فان البعض يعتقد او يزعم ان الأمر يتعلق بنزعة اقليمية ما. ان هؤلاء مخطئون بصورة فادحة.. انهم لم يدركوا تعدد لغات محيطهم»(2)

«بوشايب» الشخصية الرئيسية في النص، خبر حياة المدن وساح في أقاصي الامكنة، ثم عاد الى النبع حيث الاصل والجذر. يعيش وهو الآن في خريفه مع زوجته العجوز التي تنهض باعباء البيت، فيما ينزوي «بوشايب» في غرفته، يتأمل كون القصيدة وهي في البدء، مجرد طيف وحين تلح عليه وقد نضجت واستوت، يضعها على الورقة، ثم يبتهج كطفل، وهو يراها مكتوبة مدونة في دفتر.. يواصل «بوشايب» رعاية القصيدة تلو القصيدة، يحنو عليها، يتعهدها يخلص لها كما تخلص الام لتربية ولدها هو الذي لم يُنجب ولم يعقب.

عن الكتابة في هذه الرواية:

لن يجد القارئ الذي آلف نصوص م. خير الدين وتآنس مع عالمها التخييلي والاسلوبي، ذلك العنف والصخب الذي يسمها.. بل ان هذا النص السردي الأخير، الذي ظهر بعد رحيل الكاتب، هو نص الهدوء والدعة وراحة الضمير، راحة ينشدها هذا المحارب الذي عمل، من خلال نصوص ابداعية عديدة، على تحطيم اصنام كثيرة وتبديد اوهام (البطل في هذه الرواية، قنوع بعيشه في القرية، حريص على اداء صلواته في المسجد، وكتابة قصائده الامازيغية في المنزل).

يتخلى الكاتب ها هنا، عن عنف الكتابة وعن الزلزال الذي تحدثه عبر مقاطعها، عن شهيته النهمة لحشر كلمات غريبة مهجورة ومبتدعة، كما هو الشأن في نصوص نحو «اكادير» و«أنا الخشن» و«النباش» الخ.

في هذا النص تنساب الكتابة هادئة منتظمة تنأى عن ذلك التوتر والانقطاع والتشظية والتداخل والتدمير وخلخلة كل شيء: اللغة، الاسلوب، القيم، الذات، المجتمع، المؤسسة، وهي الخصائص التي تميز بها الراحل محمد خير الدين في جغرافيا الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية، ما جعل كاتبا كبيرا (ا. ع. المالح) يطلق عليه وصف «النهر الهادر»(3)

هوامش التقديم

1 - ادموند عمران المالح: المقهى الأزرق le Café bleu ص 102.
2 - المرجع نفسه: ص 104.
3 - المرجع نفسه: ص 106.

المقطع المترجم: من ص 144 الى 148

قالت العجوز التي كان يساورها بعض القلق، جراء الاضطراب المفاجئ الذي كان اعترى زوجها:

- كفى يا صديقي، انك تقوم الليل للكتابة، لم أر، البتة، مثلك، وانت الذي كنت تنام، دائما، نوما عميقا.

رد العجوز وهو منذهل امام قصيدة كان قد وضع اكثر من نصفها على الدفتر الأخضر.

- لأنني عقدت العزم على اتمام هذا العمل، واذا ما كنت اقوم آناء الليل كي اكتب، فلأن افكارا وحتى مقاطع شعرية كاملة تخطر علي، وينبغي تقييدها خشية ان نراها تتلاشى كخيط دخان في تيار هوائي.

- ببساطة، لا أحب ان تشكو صحتك بسببها.

- صحتي؟ حين لا اكتب فانني افقدها وانا أقوم ببعض التفاهات.

فبالعكس، لما اشتغل على القصيد، فان قوى جديدة تنبجس فجأة، من حيث لا ندري. بالأحرى قولي ان الأمر مفيد.

- إذن تحس انك بخير.

- أحسن من فتى! على اية حال، فأنا الآن احيا حياة مفعمة بالحيوية، ألم تلحظي، اذاً، اي شيء؟

- لحظت انك تبدلت قليلا. قالت:

- أنا؟ لم اتبدل، فقط اني اعيش بالوتيرة نفسها التي لبطلي. انها وتيرة جهنمية لكنها ترضيني.

منذ بضعة ايام كان العجوز ينفق كل طاقته في سبيل هذا العمل الذي لم يكن يبدو انه يبلغ دائما تمامه. فبقدر ما كان يكتب، بقدر ما كان يستشعر الحاجة القصوى للاستمرار.

كان العمل، اذا بمثابة ملحمة طويلة، نوعا من رواية حرب اسطورية كان يحرره في صمت الغرفة الرهباني. يستيقظ الآن، في الليل اذ تنتزعه من النوم صور صاخبة. حينئذ كان يرى المشاهد التي سيصفها. كان يضع على الورق صفحة او صفحتين، واحيانا يضع مقطعا شعريا واحدا فقط. وسرعان ما يستلقي وينام من جديد. لم يكن هذا ليجهده مهما ظنت زوجته العجوز، بل كان يحدث له ان ينسى انه قام لكي يكتب. هكذا كان يكتشف، في الغد، صفحات عديدة تطفح اشراقا والقا، يعجب منها. ولكن لذته كانت كبيرة.

يعمل بتفان اثناء اسابيع، ثم يرى ذات يوم ان لم يكن بمقدوره الاستمرار. فالنص قد اكتمل. يلحظ حجم الصفحات ويرى انها تشكل كتيبا جميلا، عندئذ قرر الذهاب لاستشارة امام المدرسة العتيقة فهو وحده القادر ان يرشد عن علم.

- قال للعجوز: بامكاني ان انجز نسخة جيدة يخطها احد تلامذتي.

- هذا حسن، احتفظ بالدفتر، سأعود.

قال العجوز. ثم انصرف.

وحين عاد اياما فيما بعد، رأى ان نسخ الطالب بخط اليد تحفة، وهو ما بعث فيه فكرة.

قال: ينبغي ان نطبع هذا الديوان هكذا. لسنا في حاجة الى مطبعة.

رد الإمام: كلا، نحتاج دائما الى مطبعي، ينبغي صناعة الكتاب واخراجه في نسخ، لا بد من الآلات.. طبع ثلاث مئة او خمس مئة نسخة! الأمر يعود الينا، اعتقد ان خمس مئة كافية.. صحيح ان هذا النسخ باليد ارقى من الخصائص الحالية للمطبعة، ويمكننا الاحتفاظ به. بيد ان اللجوء الى مطبعي يظل امرا ضروريا. وما سأقوم به الآن، هو ان احتفظ لا بالمخطوط الاصلي بل بهذا النسخ في صندوق فولاذي داخل الخزانة. وفيما بعد سأنتظر. سأنتظر ان يجيء محسن فيشغف بهذا النسخ بحيث..

قال العجوز: من المحتمل ان يوجد واحد، لكن الأمر قد يطول. واضاف بعد حين:

- تعلم، ان انشر اليوم او بعد قرن سيان. المهم ان يكون هذا الديوان في مأمن عندك. وفيما بعد، سيوجد، حتما، اناس يكتشفونه.

- اني أرى ما ترى، لكن لن نألو جهدا من أجل طبعه، ان شاء الله.

لقد كان توسط الامام من النجاعة بحيث ان عالما استاذا بمعهد تارودانت، وصديقا للامام قد وجد الحل في اقل من شهر فيما بعد، ويكمن في فتح باب التبرعات، وهو ما حصل.

ظهر الكتاب، بيد ان الحدث ظل بدون صدى، لأن وسائل الاعلام كانت لا تهتم بالشعر الأمازيغي. ومع ذلك توصل العجوز برسائل اعجاب، وحصل ان

محمد خير الدين (القدس العربي)

زاره بغتة رايس* يرغب في تلحين وغناء بعض من قصائده. رفض بشدة هذا العرض متعللا بأنه لم يكتب شيئا آخر سوى الملحمة ذاتها. لكنه في الواقع لم يكن يريد ان يقع الخلط بين الشعر والاغنية، بين الشاعر والمهرج. اذ الناس، في اعتقاده، لا يقيمون الفرق. ومع ذلك فانه كان يستثني من هذا الحاج بلعيد المغني الذي كان يعتبره شاعرا في المقام الأول، لكون نصوصه لم تكن البتة ذات صبغة فولكلورية بخلاف نصوص الآخرين التي كانت ارتجالية اكثر منها كتابات ملهمة وناضجة تأتي بعد اختمار طويل.

لكن لم يكن بمقدور العجوز ان يشذ عن هذه القاعدة، لقد فرض الناشر، الذي قدم لرؤيته في المدرسة العتيقة، بأن تطبع قصائده وتعد للموسيقى في آن واحد، في اشرطة سمعية بصرية يقوم بها مغنون وملحنون محترفون. واعترف فجأة، بان هذا سيجلب المال.

عاند بوشايب، بل استشاط وهو يلعن العصرنة مرة اخرى. لكنه آل الى قبول هذا العرض غير المتوقع، لان الامام كان يرى فيه اشارة يمن، اشارة ستجعل من اللغة الامازيغية تلج في آخر المطاف دورة حياة جديدة.

قال للعجوز: على اي حال لن تخسر شيئا، ستربح، فقط، المال الحلال.

حصل بوشايب اذا، على مال كاف كيما يمنح قسما منه للمدرسة العتيقة التي كانت في حاجة الى الاصلاح بسبب تفكك حجارتها الحائطية. عجز الامام عن شكره. لكن العجوز قاطعه:

- ايه! لولاك لكنت مجرد مسكين يكتب، واحدا من هؤلاء العجزة الذين ينسحبون بدون ان يخلفوا اثرا، لكنت في الحاصل مجهولا مطلقا. حسبي ان يقرأني الناس، اما البقية فلا تهم، لم اعد، اذا، احتاج البتة الى من يفك الطلاسم. هذا هو الجانب الحسن للعصرنة. كل شيء اضحى سهلا في أيامنا: قال الإمام: - ليست العصرنة كلها سلبية.

- اذا ما اعتمدناها في حدود المعقول.

- وهذا ما يغيب عن محدثي النعمة.

- ختم العجوز: كنت سأقول الشيء نفسه.

* الـ«رايس»: ناظم للشعر الامازيغي ومنشد له - المترجم-